وتتبعك عيوننا

تسعة اشهر .

« حملته تسعة اشهر في بطني وحملته تسعة اشهر في عيوني ، ولم اعد استطيع ».

هكذا قالت نايفة . لم تقل . اتخيل انها قالت ، لا اعرف . لكنها المصادفة ربما ، او الانتحار الواعي ، او الخاتمة التي تنهي الحكاية ، او لا اعرف .

وماذا سنقول لك يا نايفة ، وماذا سنخبر اولادنا . نقف امام موتك كاننا لانصدق. العمر ضاع ، وها نحن نشهد موتنا واحدا واحدا ، وواحدا واحدا سوف نحترق ونغيب .

كانك الحكاية كلها . كانك كل الدموع التي جفت من زمان ، وكل الحزن الذي صار لايشبه الحزن . هكذا ذهبت الى موتك كي تريحي عيونك من النظر الى الاشياء ، بعد ان عرفت وحدك معنى ان تحمل المراة مرتين وتخسر مرتين وتموت مرتين .

ماذا سنخبرك وكيف نجرؤ على الكلام .

اذكر اننا كنا نخجل من عيوننا ، ننظر اليك فنصير نحن الشهود والقتلة . في لحظة واحدة حولت عجزنا الى جريمة وصمتنا الى تواطؤ في لحظة واحدة انفضحنا امام عينيك اللتين تغيبان ، امام صورة الام التي تشبه كل الامهات ولا تشبه الا نفسها .

ماذا سنخبر عنك وانت تموتين ، وانت تاخذين حكايتك الى حيث تنتهي كل الحكايات قبل ان تبدا . اليست هذه هي الحكاية ؟ زوج يموت غريقا في البحر ويغيب ثلاثة ايام مع الماء قبل ان يجدوا جثته ، وطفل يختفي وتبحثين عنه تسعة اشهر وتذهبين الى حيث لا احد يبحث .

ماذا سنخبر عنك .

لماذا الانتحار يا نايفة ؟

كنت ساقول لك لكني اخاف ان تزعلي ، وانت الآن مكللة بكل بهاء الموت، وانت الآن تشبهين امي . كنت ساقول لك انهم لن يتاثروا . مؤسسة الخطف التي انشاها سفاحو شاتيلا وصبرا لن تتاثر امام موتك البهي ، لان القتلة دخلوا منذ زمن طويل في رقصة العار والجنون ، ولان الموت يثير فيهم شهوة اكبر الى القتل .

لن اقول لك لماذا الانتحار ؟

فانت لم تنتحري . انا رايت القتلة،تسعة اشهر وهم يعصبون عينيك ، تسعة اشهر وهم يجلدونك بالحديد ، تسعة اشهر ، نراهم ونرى عذابك ولا نفعل شيئا . نتلهى،نملأ وقتنا بالكذب والرياء نملأ حياتنا بالصمت ، نراهم ونسمع صراخك ولا نستطيع ان نفعل شيئا ، تسعة اشهر يا صديقتي الجميلة وانا اخاف ان احكي معك ، وانا لا اجرؤ على ان اسالك شيئا .

رايناهم وسكتنا .

وكنت تموتين نبضة نبضة . كنت تذوبين وسط الايدي التي تعذب روحك وتقتل جسدك ، وكان علي غائبا،اعرف انك ذهبت الى كل مكان ، اعرف انك بحثت وصرخت . رايتك معهن ، مع نساء لبنان وانتن تملأن الشارع بالحزن ، وانتن تحرقن دواليب المطاط عشية تنفيذ الخطة الامنية .. رايتك،رايناك ، لكننا ذهبنا الى راحتنا المؤقتة وعقدنا صفقة مع القاتل ، صمتنا عن القاتل لأننا كنا نعرف ان الحبر صار ابيض والدم صار ابيض ، صمتنا لاننا .. لا اعرف لماذا .. لكننا كنا عاجزين عن ان نصرخ بهم ، وكان عجزنا قاتلا . نجحوا في تلويث كل شيء بالجريمة ، حتى صارت الجريمة هي القاعدة . وتلوثنا فسكتنا . لوثوا بيروت كي يقتلوا روح المدينة ونجحوا . اعتقدوا واعتقدنا معهم انهم نجحوا .

لكنك ، بجسدك النحيل وكتفيك المنحنيتين على الموت تكتبين بطريقة مختلفة . لم تقتلي احدا . كنت ضد الانتقام وضد الخطف . لم تفعلي كما فعل الجميع اخذت اقصر الطرق الى الاحتجاج انتظرت تسعة اشهر كي لايلومك احد ، درت مع الفصول وحبلت عيناك بالفتى المخطوف . وعندما لم تاتِ الولادة جاء الموت .

موتك ايتها الصديقة هو الصرخة الاولى .

انتحارك البهي يعيد الحكاية الى بدايتها .

امامك ، امام الموت والحزن والصمت لن نصمت بعد اليوم . سامحي صمتنا وعجزنا وخراب روحنا .

وستكونين انت حكايتنا كلها . انت الحكاية والصداقة والصمت والكلام .

انت الحزن والصراخ .

انت ، تذهبين الى حيث تذهبين ، وتتبعك عيوننا ، ولا نجد الكلام .

الياس خوري